لقاء

قصة : محمد البساطي

دلف الاثنان الى المحـــل · كان المطر يتساقط خفيفا بالخارج · المحل صغير·· يقع على ناصية الشارع الرئيسى · تبعهما صاحب المحل بعينيه حتى جلســـا الى منضـــدة بالركن ، ثم عاد يحملق مرة أخرى فى الشارع ·· خلال الزجاج ·

تأملت الفتاة أناملها فى ثبات · دار الشـــاب بعينيه القلقتين فى المحل ·· الضوء بالداخل هادىء ، وباب المحـــل موارب ·· يســـمح بدخول ضـــجيج الشـــارع ، والمرايا المســـتطيلة تحيط كالحزام بمنتصف الجدران · استقرت نظراته على أناملها ·

خرج صبى من خلف حاجز داخلى · حفف يديه فى جلســـابه · وقف أمامهما صامتا ·

قال الشاب : « **ماذا تشربين ·· ؟ ·· حليب ·· ؟**

ـ التفت الى الغلام ـ **كوبين لبن ·· وزبادى أيضا ··** » انصرف الغلام متباطئا كالسلحفاة · اختفى خلف الحاجز ··

قال الشاب مبتسما : « **كنا نفعل ذلك ·· منـــذ ·· كم سنة مرت ·· ؟ ·· ثلاث ·· ؟**

نظرت الفتاة الى أصابعها فى صمت · أسند الشاب كوعيه الى **المنضدة** :

ـ لم أصدق ·· حين رأيتك لم أصدق عينى ·· ولكن ·· ان ملامحك كما هى ·· لم يتغير شىء ·· »

ابتسمت ابتســـامة صـــغيرة · رفعت عينيهـــا · فوجئت بعينيه قريبتين ·· تكاد أن تلمســـا وجهـــا · خفضـــت بصرها ··

ـ « **نفس الشعر الأسود ··والحاجبين الكثيفين ·· »**

ابتسمت مرة أخرى · همست : ـ

ـ « **كنت تريد ·· لقد قلت ·· انك تريد ان تقول شيئا ·· »**

انفرجت أساريره مرة واحدة : ـ

ـ « كنت أعبر الشارع ·· أتعرفين ؟ ·· فكرت ··كنت تقفين أمام السينما·· رأيتك ·· كان شيئا غريبا أن أراك ·· فى هذا الوقت بالذات ··

ـ لم ·· ؟

بدا أنها سيطرت على نفسها فجأة · رفعت وجهـــا اليه · **التقطت عينـــاه** عينيها · كانت هناك رعشة خفيفة على زاوية فمه ، ووجهه شاحب ·· شحوبا عميقا ··

ـ « لا أعرف ·· الحقيقة ·· شعرت ··شىء غريب ··كنت أفكر فيك فجأة ·· كنت أقول ·· اقول لنفسى ·· لو اراك أمام هذه الســـينما ·· ثم ·· ثم رأيتك ·· »

تألقت عيناه فجأة ·

أضواء السيارات تندفع الى الداخل كالعاصفة ، فتنعكس على المرايا فى بريق خاطف ·· مجنون ·· ثم تختفى ··

نهض صـــاحب المحل فى تثاقل · زحف بجسده السمين الى الباب · نظر فى تجهم الى المطر المتساقط ، والميـــاه المتجمعـــة تتزلق فى هـــدوء ـ دون أن يشعر بهـــا أحد ـ الى البالوعات · هز رأسه فى ضيق ، عاد الى مقعده خلف المنك الصغير ·

رفع الشاب عينيه الى السقف · انتقل

نظره بسرعة الى المرايا .. وحبات المطر الملتصقة في عناد بالزجاج الخارجي . حملق لحظة في أرض الشارع :

ـ « **مازالت تمطر .. أتستعملين نفس الطلاء لأظافرك .. ؟** »

أومأت برأسها .

ـ « **كنت تنتظرين زوجك .. ؟** »

ـ « **قلت .. أن هناك شيئا ..** »

هز رأسه هزات قصيرة عصبية .

ـ « **نعم .. كنت أريد أن أقول ..** »

صمت لحظة . نظر الى عينيها نظرات عميقة فاحصة . أمسك بأناملها . بدا عليها شيء من التردد . لكن أناملهـا طلت في يده ..

ـ « كنت تغضبين ٠٠ حين أقول ٠٠ ان لك يدى رجل ٠٠ أصابع طويلة ٠٠ كانت هنا زائدة صغيرة بخنصرك ٠٠ ؟

ـ ازلتها ٠٠

هـز رأسـه موافقا : ـ « كانت تعجبنى ٠٠ »

ـ الوقت تأخر ٠٠ يجب أن أذهب ٠٠»

ـ مازالت تمطر ٠٠ اننـا لم نشرب اللبن بعد ٠٠ » ٠

ساد الصمت بينهما ٠ أرخى ظهره للوراء ٠ عقد ذراعيه على صدره ٠ حملق ساهما الى أرجل المتصـدة ٠ انبعثت حشرجة من الراديو ٠ مد صاحب المحل ذراعه ٠ جذبه اليه متمتما فى غضب :ـ

ـ « المطر ٠٠ لا أكـره شـيئا مثل المطر ٠٠ »

كان الراديو قديما ضخما ٠ عبث لحظة بأزراره ٠ اسـتمرت الحشرجـة كأنما ستمزقه ٠ دفعه بعيدا عنه ٠ التفت الى الشـاب لحظة ، ثم عـاد يحملق فى الشارع ٠

قالت الفتاة : « وأنت ٠٠ ماذا تفعل الآن ٠٠ ؟

ـ لا شىء ٠٠ مدرس ٠٠ مجرد مدرس موسيقى ٠٠

ـ والبيانو ٠٠ ؟ ٠٠ هل تركته ٠٠؟

رفع عينيه ٠ كان يسودهما هـدوء غريب ٠ واختفت الرعشـة من فوق شفتيه ٠٠

ـ نعم تركته ٠٠ منذ مدة ٠٠ لا أدرى ٠٠ مدرس وكفى ٠٠

ـ أذكر ٠٠ أقصد٠٠ انك كنت تعزف بمهارة ٠٠

قال فى حدة : ـ « بمهارة ٠٠ ؟ »

ابتسمت عيناها : ـ « بمهـارة ٠٠ انتظرت وقتا أن ٠٠

ـ ماذا ٠٠ ؟

حطت باصبعها متعرجا على سـطح المنضدة :ـ

ـ « انتظرت أن أسمع عنك٠٠أقصد ٠٠ تصبح عازفا مشهورا ٠

صاقت عيناه قليلا ٠ التفت فجأة خلفه :

ـ « هكذا ٠٠ لقد تأخر الولد ٠٠ ماذا يفعل ٠٠ ؟

رد صاحب المحل : « سيأتى حالا ٠٠ محمود » ٠٠

طلت رأسـه منكسـة على البنك ، وعيناه فى الشارع ٠ قال الشاب :

ـ « هل أنت راضيه ٠٠ ؟ ٠٠ أقصد ٠٠ حياتك الجديدة ٠

تأملته فى رقة : « لى طفل ٠٠

ـ طفل ٠٠ ؟

ابتسم ـ ما اسمه ٠٠ ؟

ـ أحمـد ٠٠

ـ حدثينى عنه ٠٠

ـ ولد شقى جدا ٠٠ لا يكف عن الصراخ ٠٠

ـ كلا ٠٠ أقصد ٠٠ زوجك ٠٠ »

صمتت ٠ نظرت اليه نظرة حذرة ٠ كف المذياع عن الحشرجة ، واستقـام صوته ٠ رفع صاحب المحل رأسـه : « ها ٠٠ أخيرا ٠٠ عشرون عاما وهو

على ما يرام ·· ثم يحدث ذلك » ··

جذب المذياع اليه ·· كأنما يستحضنه · هز رأسه فى رضى ·· وهو ينصت الى الصوت الرخيم ·· مرت لحظة · انفجرت الحشرجة مرة أخرى ··

نهض مزمجرا : « لا فائدة ·· الراديو سليم ·· سليم ·· ولكن ·· لا أحد يعرف » ··

نظر الشاب اليه صامتا ··

استدار صاحب المحل · وقف بالباب ويداه فى خصره · يصق فى غضب ، وعاد الى مقعده ·

قال الشاب : ـ لقد تركت البيانو ·· تركته تماما ··

ـ متى حدث ذلك ·· ؟

ـ لو أننى اخترت طريقا آخر ·· ربما ··

ـ متى حدث ذلك ·· ؟

ـ لا أدرى ·· كل شىء كان على مايرام ·· ثم ·· فى مثل هذه الأمور ·· لا يعرف أحد ·· متى بدأت النهاية » ·

ـ ولكن ·· يمكنك أن تبدأ من جديد صحك : « لقد ذهب بريق الخطوة الأولى ·· الأمر ليس تدريبا ·· ليس تدريبا ·· مجرد » ··

ـ لا أفهم ·· لقد كنت ··

ـ نعم كنت ·· هنا النقطة ·· لقد كنت ·· والآن ·· ؟ مجرد أن أفكر ·· أن أقترب من البيانو ·· مجرد أن يمر هذا الخاطر فى رأسى » ·

صمت فجأة · وعيناه ثابتتان على بقعة داكنة على سطح المقعدة ·

ـ « أحيانا ·· أقرر أن أبكى ·· هكذا ·· فجأة ·· الأمر مضحك ·· أقرر أن أبكى ·· أقفل الحجرة ··

وأتمدد ·· أسترخى تماما ·· ثم أبدأ البكاء ·· الأمر مضحك ·· »

ابتسمت الفتاة : ـ « ألم تجد صعوبة مرة ·· ؟ »

ـ أحيانا ·· ثم أفكر فى شىء حزين ·· وأبكى ·· » ·

وضع الغلام كوبين من اللبن أمامهما ، وانصرف .

ـ وعملك الجديد .. ؟ .. يمكنك أن تجد فيه ..

ـ متعة .. ؟ .. كلا .. مجرد .. أشياء مرصوصة بجوار بعضها .. اليوم هو الغد .. هو الغد ..

هكذا .. لا أحلام اطلاقا ..

ـ أقصد .. لو أن .. شيئا من الحماس ...

ـ حماس .. ؟ من أين .. ؟ .. هل ستدخلان السينما الليلة .. ؟ .. انت وزوجك .. ؟

أومأت برأسها .

ـ « سيخرج من عمله مباشرة الى السينما .. في الثامنة .. »

ـ مازال هناك وقت .. هل هو قريبك .. المهندس .. ؟

نظرت اليه في صمت . قال مبتسما :

ـ « لا أدري .. لقد فكرت كثيرا .. الأمر يبدو غامضا .. مضطربا .. مرة ألوم نفسي .. ومرة .. أفكر أنه .. كان يجب أن يحدث ذلك .. »

ـ « لقد أخبرتني .. أنت تذكر .. قبل رحيلك .. قلت أنك .. انك لا تريد الزواج .. »

ـ « نعم حدث ذلك .. حدث .. أذكر جيدا .. كان هناك البيانو ..

ـ كلا .. ليس البيانو ..

ـ لقد فكرت .. كنت أفكر .. أن حياتنا معا .. ستكون مضطربة .. »

ـ كلا .. ليس هذا سبب رحيلك ..

ـ الحقيقة .. لا أدري .. كان يجب أن أرحل .. وقتها .. كنت أفكر .. انه يجب أن أرحل .. كانت المدينة صغيرة .. صغيرة جدا .. مقفلة .. بائسة تماما .. وانت تجلسين في هدوء جانب امك .. تنظمين كل شيء .. تضعينه في مكانه المناسب .. وتحلمين ببيت هادىء .. وأولاد .. تصنعين لهم بلوفرات .. يستحمون كل يوم .. يجلسون حولك في أناقة .. أنت ترين .. أنا لم أخطىء .. ثم هناك القطار .. كان لا يكف عن الضجيج تحت النافذة .. في الصباح .. في الليل .. كل ساعة .. كان ضجيجه يوقظني من النوم .. وحين أطل من البلكونة .. كنت أراه .. يتلوى على الشريط كالثعبان .. وهو ينفث الدخان .. كأنما يغيظني .. وأحيانا .. كان السائق .. يقف تحت النافذة .. ويظل طول الوقت يصفر .. يصفر ..»

ـ « كانت هناك .. امرأة أخرى .. »

ـ غيرك .. ؟ .. كلا .. انت تعرفين .. لم تكن هذه الأمور تثيرني .. الضوضاء كانت هنا .. في رأسي .. المدينة .. والنادي .. والناس .. وقلت لك يومها ..

ـ ظننت .. أنك لا تريدني ...

ـ كلا .. قلت لك تعالي معي .. قلت لك ذلك .. وكان يجب أن أرحل بسرعة .. كان النادي لا يطاق .. نفس الناس .. نفس النظرات .. والاهتمامات الصغيرة .. السخيفة .. كل يوم .. كل يوم .. كنت أحس أن موهبتي تموت .. وأنني في حاجة الى .. الى ..

ـ لم تكن تريدنى معك ..
ـ قلت لك تعالى معى ..
ـ نعم قلت .. لكنك .. لم تكن تريد ذلك ..

ـ لا أدرى .. كل شىء كان مضطربا أمـــامى .. كنت أريد أن أجـــرى .. أجرى .. » .

دلف رجـــلان الى المحل . أحدهما يحمل معطفا على ذراعه . الآخر قصـير ممتلىء .. يصيح بالضحك .. قال مشيرا الى صاحب المحل :ـ « هو .. هو .. لا يتغير .. بعد مائة عام .. ستجده فى نفس المكان .. »

ضحك رفيقه ، وجلس .

قال القصير :ـ « تذوق طعم الزبادى هنا .. وستأتى من نفسك بعد ذلك .. رائع .. رائع ..

قال رفيقه :ـ « سنرى .. »

ـ من سنتين .. وأنا أتناول عشائى هنا .. كل ليـــلة .. زبادى وبعض السكر .. أحب أن أتناوله مع السكر .. اسأله ـ أشـــار الى صـاحب المحل ـ اسأله .. »

ابتسم رفيقه ، ودعك أنفه ..

قال القصير :ـ « اسأله .. هيا .. اسأله .. وسيقول لك .. سنتان وأنا أفعـــل ذلك .. تذوق طعـــم الزبادى بالسكر ..جرب ذلك.. مرة واحدة .. وسترى ..

ـ أرى ماذا .. ؟

ـ « كل شىء ســـيكون رائعـا .. معدتك تدور فى هدوء واتزان .. دون دربكة .. »

قهقه صاحبا .وخبط المنضدة بيده. التفت اليه صاحب المحل . قال القصير :

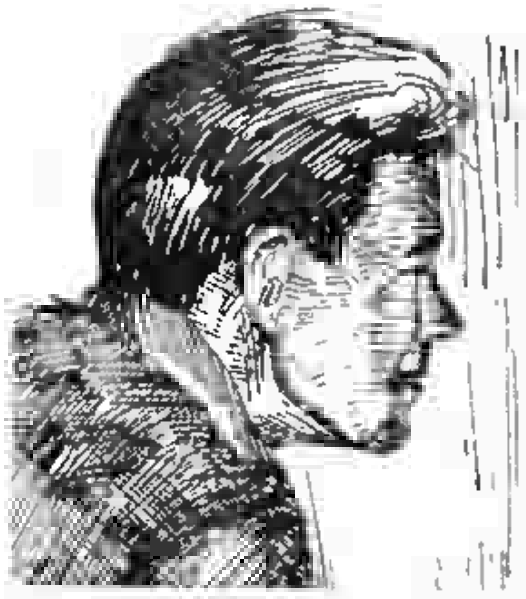

ـ « ياحاج.. زبادى .. أما نائم .. واما يحملق فى الشـــارع .. هيه .. انهض .. زبادى .. هووه .. »

اختفت الحشرجة فجأة . مرت لحظة صمت قصيرة .. وصـــاحب المحل .. يرمق الراديو فى ترقب .. تعثر الصوت مرة أخرى ، وطن أزيز رفيع صاحب . دمدم صاحب المحل ساخطا :ـ

ـ « ثم ماذا .. لقد ركبته العفاريت .. ليس به أى عطب .. كل هذا بسبب المطر .

قال القصير ضاحكا :ـ « اقفله .. ماذا تريد أن تسمع منه .. ؟ »

ـ لا شىء .. صوته .. مجرد صوته بدون هذه الخرفشة .. »

ـ صـــوته فقط .. ؟ .. واخبـار الكرة .. ألا تريد .. ؟

ـ آه .. الكرة ...

ـ والحرب .. اخبـــار الحرب فى اليمن .. ؟

ـ حرب .. ؟ .. لا مانع .. قليل من الأخبار ..

التفت القصير الى رفيقه : ـ « حرب صغيرة .. هادئة .. » . وهز راسه فى ثقة ..

ضحك رفيقه : ـ « هادئة .. ؟ .. حرب هادئة .. ؟ .. الحرب حرب ..»

ـ انها تخلق الأبطال ..
ـ الحرب لا تصنع ابطالا ..
ـ ولكنها واجبة .. أحيانا .. ؟

قالت الفتاة : ـ « يجب أن انهض .. سياتى زوجى الى السينما فى الثامنة ..»
ـ مازال هناك وقت .. رايته مرة عندكم .. قلت لى مـــرة .. أنه يريد الزواج منك .. ظننت الأمر يومها .. مجرد دعابة ..

ابتسمت الفتاة فى صمت .

ـ « كانت القاهرة تجذبنى دائما .. سنة كاملة تفرغت فيها للموسيقى .. ثم .. لا ادرى كيف .. احساس .. كما لو أننى تنبهـــت فجاة .. اسئلة كثـــيرة كانت تتزاحـــم فى راسى .. واستسلمت لها تماما .. كانت تنتابنى نوبات .. لا أطيق أن أرى فيها أحدا .. سؤال واحد كان يلح فى جنون .. ماذا تفعل الموسيقى .. ؟ .. ماذا تفعل ..؟ .. هل تستطيع أن تغير شيئا .. ؟ .. أقصد .. »

ـ « أنا .. لا أفهم .. كيف ؟ هذه الأسئلة .. »

ـ « كما ترين .. لم استطع أن اقنع نفسى .. اننا لا نصل الى مانريده أبدا .. هناك دائما شئ ناقص .. وحـــين عدت .. لم اجدك .. قالت أمك .. انك تزوجت ورحلت الى القـــاهرة .. كنت فى أشد الحرج .. لم أصدق أن هذا يمكن أن يحدث .. وأمك تبتسم فى وجهى فى ســـعادة كاملة .. دون مراعاة لشعورى .. كانت تكرهنى ..

ـ لم تكن تكرهك .. كانت تظنـــك مغرورا ..

ـ ثم عملت مدرسا بالصعيد ..جئت

في اجازة أسبوع .. وسأرحل غدا ..

ـ والبيانو .. ؟

ـ انهم .. هنا .. في القاهرة .. يجرون بسرعة .. كنت اظن أنه يمكن العودة .. ولكن ...

ـ انت ايضا كنت تعزف بمهارة .. مجرد ان تتحمس .. وتبدأ ..

أحست فجأة بابتسامته ، ونظراته الفاحصة . صمتت . نظرت حولها في قلق ..

ـ « كان يعجبني حديثك دائما .. تتحمسين لكل شيء ..

ـ الساعة الآن الثامنة ..

ـ كانت اياما قاسية .. في الصعيد .. الحقيقة .. كنت أفكر فيك كثيرا .. حين أقفل الحجرة .. واستعد للنوم .. كان الأمر قاسيا .. احيانا اتذكرك .. فجأة .. في الفصل .. أو .. أي مكان .. مجرد أن اتخيل .. اني تركتك .. هكذا ..

ـ يجب أن اذهب ..

ـ كنت اشعر .. طول هذا الوقت .. اشعر .. أنني .. مسئول عنك .. ظل هذا الشعور .. حتى بعد أن عرفت بزواجك .. لا أدري .. الأمر يبدو ..

ـ « يجب أن اذهب .. »

وقفت ..

ـ « هل تذهبين الآن .. ؟ » . ظل جالسا يرقبها وهي تدفع أصابعها الطويلة داخل القفاز ..

ـ « بهذه السرعة .. ؟ .. ابقى قليلا .. خمس دقائق أخرى .. »

ـ « لابد أنه ينتظر الآن .. أمام السينما .. » .

ـ « آه .. زوجك .. هل ستراك غدا .. قبل سفرى ..

ـ لا أستطيع .. أنت تفهم ..

مدت يدها اليه . ظل جالسا يحملق نحوها في صمت . بدت الرعشة بوضوح على شفتيه .

ابتسم قائلا : ـ « اذن .. أسير معك قليلا .. »

ـ كلا .. أنت تعرف .. اقصد ..

هز رأسه مبتسما . نهض . قالت في تردد : ـ

ـ « كنت تريد .. قلت .. أن هناك شيئا تريد قوله ..

ـ « كلا .. لا شيء .. أبدا .. كنت أريد فقط أن اتحدث مع أحد .. »

نظر الى صورته المنعكسة في المرآة . كان ضوء النيون هادئا .. والمطر توقف في الخارج . سارا معا حتى باب المحل . ظل واقفا يرقبها وهي تعبر الشارع .. في خطوات سريعة ، ثم تسير على الرصيف المقابل .. كانت الحفر الصغيرة الممتلئة بمياه المطر .. تشهق تحت ثقل عجلات السيارات المارة .. ويتناثر منها رذاذ دقيق من الوحل . نظر برهة .. الى طابور السيارات الطويل . سمع صوتا يتمتم بحواره : ـ

ـ « لابد أنها ستمطر مرة اخرى .. »

التفت خلفه . كان صاحب المحل ينظر متجهما الى المياه المتراقة نحو البالوعة .. هز كتفيه .. ومضى ..

محمد البساطي